الذبـــح والنحـــر

□ الذبــــح والنحـــــر □

النحر والذبح علم من أعلام الملة الإبراهيمية ، وشعيرة من شعائر الأمة المحمدية قال تعالى : ﴿ **ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾ .

وهذه كناية عن نحر الذبائح في أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجو جوّ عبادة ؛ ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله، ومن ثَمَّ فإن أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة، وكأنما هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته.

والنحر ذكرى لفداء إسماعيل عليه السلام ، فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عَبْدَيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فوق ما هو صدقة وقربى لله بإطعام الطعام .

يقول ابن القيم في قصيدته الميمية ذاكرًا ما كان بعد الوقوف بعرفة .

وراحوا إلى جمع فباتوا بمشعر الـ ـحرام وصلوا الفجر ثم تقدموا
إلى الجمرة الكبرى يريدون رميها لوقت صلاة العيد ثم تيمموا
منازلهم للنحر يبغون فضله وإحياء نسك من أبيهم يُعظَّمُ
فلو كان يُرضي الله نحرُ نفوسهم لدانوا به طوعا وللأمر سلَّموا
كما بذلوا عند الجهاد نحورهم لأعدائه حتى جرى منهمُ الدمُ

يا له من يوم أقسم به الله في كتابه فقال تعالى : ﴿ **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر** ﴾ فالفجر فجر يوم النحر كما قال مجاهد . والشفع يوم الذبح .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الحج العجّ والثج »[1].

فالعج هو رفع الصوت بالتلبية ، والثج هو نحر الهدي وإراقة الدماء .

يأتي الحاج المنحر في منى ، فينحر هديه ، وهذا هو السنة .

لكن يجوز له أن ينحر في أي مكان آخر من منى ، وكذلك في مكة لقوله ﷺ : « قد نحرت ههنا ، ومِنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر ، فانحروا في رحالكم » .

السنة أن يذبح أو ينحر بيده إنْ تيسر له ، وإلا أناب عنه غيره .

ويذبحُها مسقبلا بها القبلة فيضجعها على جانبها الأيسر ويضع قدمه اليمنى على جانبها الأيمن .

وأما الإبل فالسنة أن ينحرها وهي قائمة معقولة اليسرى ، قائمة على ما بقي من قوائمها ووجهها قبل القبلة ، ويقول عند الذبح أو النحر : « بسم الله ، الله أكبر ، اللهم إن هذا منك ولك ، اللهم تقبل مني » .

ووقت الذبح أربعة أيام العيد : يوم النحر ، وهو يوم الحج الأكبر وثلاثة أيام التشريق لقوله ﷺ : « كل أيام التشريق ذبح » .

وله أن يأكل من هديه وأن يتزود منه إلى بلده كما فعل النبي ﷺ ، وعليه أن يطعم منها الفقراء وذوي الحاجة لقوله تعالى : ﴿ **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر** ﴾ . والقانع هو السائل ، والمعتر : الذي يعتر بالبدن يطيف بها معترضا لها من غني أو فقير .

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عمر ، وابن ماجة، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن عن أبي بكر ، وأبو يعلى في مسنده عن ابن مسعود،وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١١٢ والصحيحة رقم ١٥٠٠ .

ويجوز أن يشترك سبعة في البعير والبقرة ، فمن لم يجد هديا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

ويجوز له أن يصوم في أيام التشريق الثلاثة لحديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهما قالا: « لم يُرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدي »(١).

○ شعائر الله استعظام البدن واستحسانها ○

قال تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾ .

البدن أصلها من الإبل وأُلحقت بها البقر شرعا .

وسُميت البدن مِنْ قِبَلِ السمانة .

﴿ لكم فيها خير ﴾ قال إبراهيم النخعي: من شاء ركب ومن شاء حلب.

روى مسلم عن جابر مرفوعا : « اركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظَهرا » .

وفي هذا مخالفة لما كانوا عليه في الجاهلية من البحيرة والسائبة .

وإشعار البدن مستحب : والإشعار أن يكشط جلد البدنة حتى يسيل دم ثم يسلته، فيكون ذلك علامة على كونها هدياً، وبذلك قال الجمهور من السلف والخلف.

وفائدته : الإعلام بأنها صارت هديا ليتبعها من يحتاج إلى ذلك ، وحتى لو اختلطت بغيرها وتميزت ، أو ضلّت عرفت ، أو عطبت عرفها المساكين بالعلامة فأُكلوها مع ما في ذلك من تعظيم شعار الشرع وحث الغير عليه ، وأبعد من منع الإشعار .

---

(١) رواه البخاري وغيره .

قال الترمذي : سمعت أبا السائب يقول : كنا عند وكيع فقال له رجل : روي عن إبراهيم النخعي أنه قال : الإشعار مثلة ، فقال له وكيع : أقول لك : أشعر رسول الله ﷺ ، وتقول : قال إبراهيم ! ما أحقك بأن تحبس . اهـ .

اتفق من قال بالإشعار بإلحاق البقر في ذلك بالإبل، إلا سعيد بن جبير. واتفقوا على أن الغنم لا تشعر لضعفها، ولكون صوفها أو شعرها يستر موضع الإشعار.

قال الدهلوي : السر في إشعار رسول الله ﷺ ناقته في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عليها :

« في الإشعار التنويه بشعائر الله وأحكام الملة الحنيفية ، يرى ذلك منه القاصي والداني ، وأن يكون فعل القلب منضبطا بفعل ظاهر » .

○ تقليد البدن النعل ○

قال ابن حجر : « الحكمة في تقليد النعل أن فيه إشارة إلى السفر والجدّ فيه . فعلى هذا يتعين . والله أعلم . وقال ابن المنيّر في الحاشية : الحكمة فيه أن العرب تعتد النعل مركوبة لكونها تقي عن صاحبها وتحمل عنه وعر الطريق ، وقد كنى بعض الشعراء عنها بالناقة ، فكأن الذي أهدى خرج عن مركوبه لله تعالى حيوانا وغيره ، كما خرج حين أحرم عن ملبوسه ، ومن ثم استحب تقليد نعلين لا واحدة ، وهذا هو الأصل في نذر المشي حافيا إلى مكة »[1].

قال الدهلوي : « السر في الهدي : التشبه بفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام فيما قصد من ذبح ولده في ذلك المكان طاعة لربه وتوجها إليه . والتذكر لنعمة الله به وبأبيهم إسماعيل عليه السلام ، وفعل مثل هذا الفعل في هذا الوقت والزمان ينبه النفس أي تنبه » .

---

(١) فتح الباري ٣ /٦٤١ .

قال تعالى : ﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ .

تعظيم شعائر الله وهي ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها .

وقد ربط بين الهدي الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ إن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره .. وهذه المناسك والشعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم عليه السلام وما تلاه ، وهي ذكريات الطاعة والإنابة والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة ، فهي والدعاء والصلاة سواء .

وقد كان المسلمون في عهد النبي ﷺ يغالون في الهدي ، يختارونه سمينا غالي الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، مدفوعين بتقوى الله .

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أهدى عمر نجيبا فأعطي بها ثلاث مائة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أهديت نجيبا، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار. أفأبيعها وأشتري بثمنها بدنا ؟ قال : « لا ، انحرها إياها » .

هذه الناقة النجيب لم يكن عمر رضي الله عنه يريد أن يضن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشتري بها بدنا للذبح ، فشاء رسول الله ﷺ أن يضحي بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقًا كثيرة ، قد تعطي لحما أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ **فإنها من تقوى القلوب** ﴾ وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله ﷺ وهو يقول لعمر رضي الله عنه « انحرها إياها » هي بذاتها لا سواها .

ومن هذا المعنى قال رسول الله ﷺ : « دم عفراء أزكى عند الله من دم سَوْدَاوَين »[1].

---

(١) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن كثيرة بنت سفيان . قال الهيثمي : فيه محمد ابن سليمان، وهو ضعيف، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٣٨٦، والأحاديث الصحيحة برقم ١٨٦١ . =

قال تعالى : ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم ....** ﴾ الآية . هذه الذبائح شعيرة معروفة في شتى الأمم ، فحرم من الذبائح ما أهل لغير الله ، وحتّم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله .

وقال تعالى : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾ إن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه ، إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها ، لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة .

قال تعالى في شأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ [الصافات : ١٠١ - ١١٢] .

قال ابن الجوزي رحمه الله : « لما ابتلي الخليل بالنمرود فسلم ، وبالنار فسلم ، امتد ساعد البلاء إلى الولد المساعد . فظهرت عند المشاورة نجابة ﴿ **افعل ما تؤمر** ﴾ وآبَ يوصي الأب : اشدد رباطي ، ليمتنع ظاهري من التزلزل ، كما سكن قلبي مسكن السكون ، واكفف ثيابك عَنْ دمي ، لئلا يصبغها عندمي ، فتحزن لرؤيته أمي ، وأقر السلام عليها مني ، فقال : نعم العون أنت يا بني .

يا إبراهيم عادة السكين أن تقطع ، ومن عادة الصبي أن يجزع ، فلما نسخ

= العفراء : هي الشاة التي يضرب لونها إلى بياض غير ناصع، والعفرة لون الأرض فإن دمها عند الله أفضل من دم شاتين سوداوين .

الذبيح نسخة الصبر ، ومحا سطور الجزع ، ونبت حب الرضا في حبة القلب ، قلبنا عادة الحديد فما مرّ ولا قطع .

ليس المراد من الابتلاء أن نعذب ، ولكنا نبتلي لنهذب .

أين المعتبرون ؟ بقصتهما ، في غصتهما ، لقد حصحص الأجر في حصتهما لمّا جعلا الطاعة إلى الرضا سُلَّمَا ، سَلَّ ما يُؤذي فسلما ، وكلمّا كلما حاجب كلم[1] كَلَّ ما به تذبحان ، فصد ما به صدما ، بيناهما على تل ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ جاء بشير ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ فارتد أعمى الحزن بصيرا، بقميص ﴿ وفديناه ﴾.

ليس العجب أمر الخليل بذبح ولده ، وإنما العجب مباشرة الذبح بيده ، ولولا استغراق حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور[2].

كم الفرق بَيْن مَنْ قيل له : اذبح ولدك وباشر أنت الذبح فهَمّ ، وبين مَنْ قيل لهم : اذبحوا بقرة ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ .

ولنا مع الحادث الفريد العظيم وقفة ووقفة ، بل تعجز الكلمات أن تصور روعة هذا الحدث ، هذا خليل الرحمن ﷺ الذي هاجر إلى ربه وترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، وحيدا بلا عقب ، يتجه إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذي ترك وراءه كل شيء ، وجاء إليه بقلب سليم .

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ .

هو إسماعيل ، وصفه ربه بالحلم وهو غلام ، ولنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام الذي يصفه ربه بأنه حليم .

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم ، بل

---

(١) جرح .

(٢) المدهش ٨٠ – ٨١ .

في حياة البشر أجمعين . وآن أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المثل الموحى ، الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم عليه السلام .

﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء من الصابرين ﴾ يالله ! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم .

هذا إبراهيم الشيخ ، المقطوع من الأهل والقرابة ، المهاجر من الأرض والوطن ، ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام طالما تطلع إليه ، فلما جاء غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم ، وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعي ، ويرافقه في الحياة .

ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه ، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم .. نعم إنها إشارة ... مجرد إشارة .. وليست وحيا صريحا ، ولا أمرًا مباشرًا . ولكنها إشارة من ربه ... وهذا يكفي .. هذا يكفي ليلبي ويستجيب . دون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه .. لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد ؟! .

ولكنه لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب .. كلا ، إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء .. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب .

قال : **﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى ﴾** .

فهي كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه ، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه ! .

والأمر شاق – ما في ذلك شك – فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد

إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته .. إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده .. يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه وهو – مع هذا – يتلقى الأمر هذا التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يتروّى في أمره ، وأن يرى فيه رأيه ! إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه ، وينتهي . إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر . فالأمر في حسه هكذا ، ربه يريد . فليكن ما يريد على العين والرأس[1] وابنه ينبغي أن يعرف . وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاما ، لا قهرا واضطرار ، لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! .

إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها ، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأفنى ... .

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذي يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها أبوه ؟ إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه :

﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب . ولكن في رضا كذلك وفي يقين !! **﴿ يا أبت ﴾** ... في مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل لا يفقده أدبه ومودته[2] .

﴿ افعل ما تؤمر ﴾ – فهو يحس ما أحسه من قبلُ قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة .

وأن في الإشارة أمرًا . وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب .

---

(١) بل على العينين والرأس .

(٢) والجزاء لإبراهيم من جنس عمله .. مثلما تأدب مع أبيه تأدب معه ابنه عليه السلام .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال ، والاستعانة بربه على ضعفه ، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة ، ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة .

ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا .. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به .

﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم!.

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام .. يخطو إلى التنفيذ :

﴿ فلما أسلما وتلّه للجبين ﴾ .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضا وراء كل ما يتعارف عليه بنو الإنسان .. .

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعدادا ، وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

لقد أسلما .. فهذا هو الإسلام .. هذا هو الإسلام في حقيقته .. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم .. وتنفيذ .. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد في الميدان، يقتل ويقتل. ولقد يندفع الفدائيّ وهو يعلم أنه قد لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر... ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص!.

إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضا الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل ! وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أدّيا ، كانا قد أسلما ، كانا قد حققا الأمر والتكليف .

ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه .. وهذا أمر لا يعني شيئا في ميزان الله ! بعد ما وضع إبراهيم إسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .. .

وكان الابتلاء قد تم .. والامتحان قد وقع ، ونتائجه قد ظهرت ، وغاياته قد تحققت، ولم يعد إلا الألم البدني، وإلا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء ، ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكليّاتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جاوزوا الامتحان بنجاح . وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما ، فاعتبرهما قد أدّيا وحققا .

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ .

قد صدّقت الرؤيا وحققتها فعلا ، فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد ، ولو كانت هي النفس والحياة .

وأنت يا إبراهيم قد فعلت ، جُدْت بكل شيء ، وبأعز شيء ، وَجُدْت به في رضا وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين ، فلم يبق إلا اللحم والدم ، وهذا ينوب عنه ذبح ، أي ذبح من دم ولحم ! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدّت ، يفديها بذبح عظيم، قيل : إنه كبش وجدهُ إبراهيم مهيأً . بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلا من إسماعيل ! .

وقيل له: ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ يجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء.

عذابُــهُ فِــيكَ عــذبُ وبُعْــدُه فِــيكَ قُــرْبُ
وأنتَ عِنــدِي كَرُوحــي بَــل أنتَ مِنْهَــا أَحَبُّ
حَسْبِي مِــن الحُبِّ أنــيِّ لِمَــا تُــحِبُّ أُحِبُّ

ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء ، ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء! .

ومضت سنة النحر في الأُضحى ، ويوم النحر ، ذكرى لهذا الحادث العظيم ، الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان ، وجمال الطاعة وعظمة التسليم ، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه السلام ، الذي تتَّبع ملته ، والذي ترث نسبته وعقيدته .

ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنه الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية ، لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ، ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تُقدّم ! ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ، ولا أن يؤذيها بالبلاء ، إنما يريد تأتيه طائعة ملبيه وافية مؤدية مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء .

وقَبِل منها وفدّاها . وأكرمها كما أكرم أباها .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ .. فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون ، وهو أمة ، وهو أبو الأنبياء ، وهو أبو هذه الأمة المسلمة وهي وارثة ملته ، وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملّة إبراهيم . فجعلها الله له عقبا ونسبا إلى يوم الدين .

﴿ سلام على إبراهيم ﴾ سلام عليه من ربه ، سلام يسجل في كتابه

الباقي ، ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ كذلك نجزيهم بالبلاء ، والوفاء ، والذكر ، والسلام ، والتكريم .

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

وهذا جزاء الإيمان وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين .

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق في شيخوخته ، ويباركه ويبارك إسحاق .. يبشره بيعقوب ابن ابنه في حياته وابن الابن أعز من كل شيء .. لما هان عليه ابنه في ذات الله .. فعوّضه الله وجازاه من جنس عمله ، وتتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب .

إنما هي وارثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن ، ومن انحرف فهو ظالم ، لا ينفعه نسب قريب أو بعيد ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله :

الخلّة : هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه ، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني   ولذا سمي الخليل خليلا

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده ، وثمرة فؤاده وفلذة كبده ، لأنه لما سأل الولد فأعطيه ، تعلقت به شعبة مِنْ قلبه . و « الخلة » منصب لا يقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبح ولده ، ليخرج المزاحم من قلبه ، فلما وَطّنَ نفسه على ذلك ، وعزم عليه عزما جازما ؛ حصل مقصود الأمر ، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبح العظيم ، وقيل له :

﴿ **يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا** ﴾ أي :عملت عمل المصدق ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ نجزي مَنْ بادر إلى طاعتنا فنقرّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ وهو اختبار المحبوب لمحبه ، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته فيتم عليه نعمه ، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا .

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواصّ خلقه ، وأهل الألباب والبصائر منهم ، فما كل أحد يجيب داعيها ، ولا كل عين قريرة بها ، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضته اليمين يوم القبضتين . وسائر أهل اليمين في أطرافها .

فما كل عين بالحبيب قريرة ... ولا كل مَنْ نُودي يجيب المناديا
ومَنْ لا يُجب داعي هداك فَخلّه ... يُجب كل من أضحى إلى الغي داعيا
وقل للعيون الرمد إياك أن تري ... سنا الشمس فاستغشي ظلام اللياليا
وسامح نفوسًا لم تهبها لحبهم ... ودعها وما اختارت ولا تك جافيا
وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة ... مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ولاءمها قطع من الليل باديا
فكن أبدا حيث استقلت ركائب الـ ... ـمحبة في ظهر العزائم ساريا
وأدلج ، ولا تخش الظلام فإنه ... سيكفيك وجه الحِبِّ في الليل هاديا
وسُقها بذكراه مطاياك إنـه ... سيكفي المطايا طيب ذكراه حاديا